المقال التاسع

يشجب بن يعرب *

أؤكد للقارىء ـ بدايةً ـ أن هذا العنوان ليس من صياغتى ، وأنه مهما اتسع خيالى فلست بقادر على أن آتى بمثله . وترسبت الكلمتان فى ذهنى منذ بضعة أشهر ، حين كنت أقرأ مقالاً فى إحدى الصحف أو المجلات ، لاأذكر ماهى ، بل وماهو الموضوع على التحديد ، إذ كنت أسعى إلى أن يغشانى النوم بعد يوم مرهق من السعى فى مناكب مصر المحروسة . وفجأة أيقظتنى الكلمتان ، واتسعت العينان ، واستعذت بالرحيم الرحمن .

كان المقال الذى قرأته عن ترجمة لسيرة إحدى الشخصيات الجليلة من السلف ، واعتمد الكاتب فى مادته على ماورد فى معجم البلدان لياقوت الحموى . وأورد ـ كما هى العادة فى بداية الترجمات ـ سلسلة

(*) مقال نُشر فى عام ١٩٩٥ بمناسبة تنديد وشجب الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة مع الشعب الفلسطينى ، رغم ما كان يتم من جهود فى عملية السلام .

أسماء المترجَم له ، وكانت سلسلة طويلة ، انتهى فيها نَسَبُهُ إلى (يشجب بن يعرب) . وأخذ الفكر يقلب فى موقع كلمة (يشجب) أهى اسم أم فعل أم صفة ، وهل لصيغة الفعل حسب منطق اللغة المألوف (يشجب) ماله من دلالات ومعان كما نفهمها اليوم . وعلى أية حال . . فلا يُعد نسب شيخنا الجليل ـ رحمة الله عليه ـ مسئولاً عما يثيره فعل الشجب فى تاريخنا المعاصر من معان مثيرة ومريرة فى عقل كل من ينتمى إلى بنى يعرب من المحيط إلى الخليج .

وتداعت الخواطر ـ كما اعتقد أنها تتداعى عند أى مواطن عربى ـ وهى تتذكر أن (يشجب) من أكثر الكلمات تواتراً وتكراراً فى قاموسنا السياسى ، وفى خطابنا الرسمى. والمستعرض للمواقف التى توظف فيها تلك الكلمة يدرك أنها تستخدم فى تصريحات لمواجهة أحداث أو سياسات أو اعتداءات تتنافى مع مصالحنا ، أو تهدد أمننا القومى أو تعتدى على حقوقنا ، أو على حقوق أشقائنا أو أصدقائنا من الأقطار الأخرى . ومن المنطقى أن يتبع (الشجب) بالقلم واللسان ، نوعاً من الفعل الذى يحول القول اللفظى إلى عمل إيجابى فاعل ومؤثر فى حركة مضادة لتصحيح الأوضاع ، وصد العدوان ، ورَدّ الحقوق بوسائل العمل وآلياته المتكافئة مع الاعتداء المرتكب ... فهل يصدق علينا قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون . كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ .

إن هذا التعبير الفاتر فى مواجهة الحقوق المسلوبة قد غدا ضعيفا متردداً باهتا ومترهلا .

هل الشجب استجابة العاجز ؟ هذا صحيح . ولعله من المفيد فى هذا الصدد أن يقوم أحد المشتغلين بالعلوم السياسية بإحصاء آلاف المرات التى ترددت فيها أصداء الشجب لاعتداءات إسرائيل ، وتحديها لقرارات الأمم المتحدة ، وعدوانها على الأرض والبشر .

وقد تم توظيف الشجب أحيانا من قبيل إبراء الذمة والمجاملة ، قياماً بالواجب فى المناسبات ، وخوفاً من الملامة والعتاب فى استنكار ما تقوم به إسرائيل يوماً بعد يوم من غارات مدمرة للقرى ، وقتل وترويع للسكان فى جنوب لبنان . وقتل جندى إسرائيلى واحد تطغى أخباره على الفظائع الجماعية التى ترتكب فى حق اللبنانيين . ويشجب بن يعرب أحياناً مجاراة للركب المتحضر من قبيل إظهار المشاعر الإنسانية إزاء المذابح والتجويع لأهل البوسنة على يد الصرب ، ولا بأس من شجب الحروب الأهلية فى رواندا والكونغو وأنجولا ، وهى أقطار لا يستطيع بن يعرب أن يتخذ فيها أكثر من أن يشجب لبعد المسافة ، ولتعقد الموقف ، والالتزام بقررات الأمم المتحدة . وإذا كان من المشاجبين إزاء معاناة أهل القرابة والقربى ، فلا ينتظر منه أكثر من مجاملات الشجب مع الأبعدين .

وقد انكشف لنا فى أخريات العام المنصرم أن ابن يعرب كان يشجب من قبيل التزييف والتمويه والخداع لجماهير هذه الأمة . يصيح بالشجب المتوتر ويفعل النقيض التام فى زاوية قدرها ١٨٠ درجة . وآية

ذلك ماسمعناه وقرأناه من تصريحات بعض القادة من بنى يعرب ؛ الذين شجبوا وشجبوا وأشبعونا شجبا لبنى إسرائيل ، ثم تبين أنهم كانوا على صلات ودية متصلة فى نفس الوقت . وتزداد مرارة الخداع حين سمعناهم يتباهون بأن تلك الصلات لم تنقطع، فقد امتدت خلال الثمانية عشرة سنة الماضية ، أى منذ عدوان عام ١٩٦٧ . وما أتعس شعوب يخدعها قادتها ، ويعلنون ذلك تحت شعار أنهم دعاة سلام ، هو فى جوهره سلام أمريكى، كما يقول إدوارد سعيد، سلام لا تقابله أرض، وما استرد من حفنة من التراب المحتل ما تزال مليئة بالأشواك ، بل بالألغام . وقد اتخذ البعض من هذه الحفنة الأسيرةمن التراب العربى ذريعة شرعية للسكوت، حتى عن مجرد الصياح فى أبواق الشجب . وتتوالى الهرولات حاملة زهور المحبة ، من خلال الزيارات واللقاءات والصفقات .

و إنا لمنتظرون فى تفاؤل مستمد من ليلة الإسراء والمعراج التى تحرر فيها هذه السطور، ونحو سعى جاد لتحرير القدس الشريف ومسجده الأقصى الذى أُسْرِى إليه محمد ﷺ، والذى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين . وفى سبيل ذلك التحزير لن ينفع الشجب ، ولن يبرر الخداع، وسوف يكون الحساب فى الدنيا والآخرة عسيرا .